

المزهر في علوم اللغة وأنواعها

بالمرَّة الواحدة فتقومُ الخشبة في هذا الإيماء وهذه الإشارة مقامَ جارحة ابن آدم في الإشارة بها في المواضع وكما أن الإنسان أيضاً قد يجوزُ إذا أراد المواضع أن يشير بخشبةٍ نحو المراد المتواضع عليه فيقيمها في ذلك مقامَ يده لو أراد الإيماء بها نحوه .

فلم يُجب عن هذا بأكثرَ من الاعتراف بوجوبه ولم يخرج من جهته شيء أصلاً فأحكيه عنه وهو عندي (و) على ما تراه الآن لازمٌ لمن قال بامتناع كون مواضع القديم تعالى لغةً مُرَّجلة غير ناقله لساناً إلى لسان فاعرف ذلك .

وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات كدَوِيَّ الريح وحنين الرعد وخرير الماء وشَحِيج الحمار ونعيق الغراب وصهيل الفرس ونَزِيب الطَّبِيّ ونحو ذلك . ثم وَلِدَت اللغاتُ عن ذلك فيما بعد . وهذا عندي وجهٌ صالح ومذهب مُتَقَدِّمٌ .

واعلم فيما بعد أنني على تَقَادُم الوقت دائمٌ التَّذَقُّير والبحث عن هذا الموضوع فأجد الدَّوَاعي والخوالج قويَّة التَّجاذب لي مختلفةً جهات التَّغَوُّل على فكري وذلك (أنني) إذا تأملتُ حالَ هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة وجدت فيها من الحكمة والدَّقَّة الإِرْهاف والرَّقَّة ما يملك عليَّ جانب الفكر حتى يكاد يطمحُ به أمامَ غَلَاوَةِ السَّحَرِ فمن ذلك ما نَبَّهَ عليه أصحابنا (رحمهم اللّٰه) ومنه ما حَذَّوْهُ على أمثلتهم فعرفت بتَدَابُّعِهِ وانْقِيادِهِ وبُعْدِ مَرَامِيهِ وآمادِهِ صَحَّةَ ما وُفِّقُوا لتقديمه منه ولطُفِ ما أُسْعِدُوا به وفُزُّوا بِهِم عنه وانْضَافَ إلى ذلك وَاِرْدُ الأُخْبَار المأثورة بأنها من عند اللّٰه تعالى فَفَقَوِيَّ في نفسي اعتقادُ كونها توقيفاً من اللّٰه سبحانه وأنها وحيٌ . ثم أَقُول في ضد هذا : (إنه) كما وقع لأصحابنا ولنا وتَنَدَّبَ هَوا .

وتنبهنا على تأمُّل هذه الحكمة الرائعة الباهرة كذلك لا ننكر أن يكونَ اللّٰه تعالى قد خَلَقَ مِن قَبْلنا وإن بَعُدَ مَدَّاهُ عَنَّا مَنَ كانَ أَلْطَفَ مِنَّا أَذْهَاناً وَأَسْرَعَ خَوَاطِرَ وَأَجْرَاجَ جَنَاناً فَأَقْف